الأنباء
الجمعة 14 اكتوبر 2011

الوهم الجميل

● بقلم: صالح الشايجي
katebkom@gmail.com

نصيحة مُرّة: أرجوك لا تبحث عن السعادة..

السعادة.. الكذبة الوحيدة المصدّقة..

أقرب الطرق إلى السعادة..بعدم البحث عنها..

حنين وردة إلى ترابها..

في أذنيك.. كلماتي

أنا ابن عينيك يا حبيبة..
حرفٌ - أنا ـ مكتوبٌ في دفترك المدرسي..
وقافية غافية في دفتر أشعارك..
□ □ □
أنا صديق شفتيك الهامستين..
وعينيك الراكعتين..
وصديق شمسك الآيلة للسطوع..
□ □ □
هل تذكرين ضحكات كنا تقاسمناها..
وبكاء.. بلا خجل.. بكيناه..
لا نحب.. حبس الدموع..
وذكريات زرعناها..
وكلمات كتبناها.. على صفحات قلبينا..
لي في أذنيك كلمات..
ولك في قلبي..كتب مقروءات..
□ □ □

الكذبة الجميلة

السـعادة في الحياة.. وهم كبير..وخيال إنساني.. وكذبة ابتدعها عقل الإنسان ليلهو بها وليجعلها هدفا مستحيل الوصول..
إنها الكذبة الجميلة..الكذبة الحميدة..
□ □ □
يولد الإنسان موعودا بالشقاء.. لا بالسعادة..
يولـد بخوفه من حياة سيسـعى في قادم عمـره إلى تحقيق وهم السـعادة فيها.. فتخونه الحياة أو هو الذي يخون نفسه لأنه يعيش يبحث عن وهم ويلحق سرابا واهما اسمه السعادة..
من أين تأتي السـعادة إلى الإنسـان؟.. وكيف يسـتطيع الإنسان تحقيقها؟ وهي وهمٌ وكذبةٌ كبرى..
□ □ □
الخائف لا يسـعد ولا يمكن له أن يسعد لأن الخوف قاتل للسعادة ونقيض لها ولا يمكن للخوف والسعادة أن يجتمعا في قلب إنسان..
والإنسان كائن خائف بطبعه.. يخاف من كل ما يحيط به في حياته.. ومما لا يحيط به أيضا..
يخاف من المجهول ومن الموت ومن الفشل ومن المرض ومن الآخرين وربما من نفسه..
□ □ □
لا أقول هذا من باب التشاؤم.. ولكنني أطرح الأمر بموضوعية وبعيدا عن التهيؤات وتزييف الحقائق وإنكار الوقائع..
إنها الحقيقة الصادمة التي عاشت البشرية عمرها كله وعلى امتدادها الزمنـي لا تريد أن تصدقهـا أو تتعامل على ضوء وجودها كحقيقة لا تقبل اللبس والاشتباه.. فهي واضحة وضوحا كاملا أكاد أقول أوضح من الشمس التي تختبئ خلف الغيوم كثيرا من أيام السنة.. أما هذه الحقيقة فهي عارضة نفسـها ومطلة بوجهها على الدوام.. لا تحجبها غيوم ولا سحب ولا دياجير الليل ولا سجفه السوداء.. ومن يحجبها هو الإنسان ذاته الذي يحاول أن يخفيها لأنها مرضه الدائم وعقدته الأبدية..
قد يظن ظان أو يعتقد معتقد أو يحسب ذو حسبان أنني أعكس بهذا الذي أكتبه عن عدمية السـعادة.. وجهة نظري المتشائمة والسوداء أو أنني جلاب للغم مئاع للفرح..
بينمـا العكس يا سـادتي هو الصحيح.. فأنا إنسـان فرحٌ طروبٌ ضاحك.. ذو قلب أخضر وعينين تتزينان بالحياة..
أعشق نجوم الليل وأراهُنّ صويحباتي اللائي يسكبن بهاءهن المذاب في قلبي..
وأحب الزهر غافيا في أكمامه أو متزينا بصدر امرأة..
وأحب مائسات القدود..
أبحث عن الضحكة في قلب المأساة..
وأرى الجمال في الدنيا رأي العين..وأحسه وليدا يتربى بين يديّ..
ولكن طبيعتي البيضاء تلك لا تمنعني من أن أشهد بقولة الحق عند سلطان الكذب وشيطان الغفلة..
□ □ □
إن لي براهيني في قولي بعدمية السعادة في حياة الإنسان..
فجـرس الحقيقة الذي يقرع في أذني وكأنه يوبّخني.. يدعوني إلى حقيقـة غفلت عنها وربما كلنا عنها غافلون.. وهي تعريف السـعادة ومعناها؟ وأين منشؤها؟ وكيف تنشأ؟
حتى الآن لا جواب لهذا السؤال المدوي.. لأنه سؤال عن أمر غير موجود وليس لـه وجود بتاتا..فكيف يمكن تعريف ما هو غير معروف وغير موجود.. وأستغرب ممن حصر المستحيلات بـ«الغول» و«العنقاء» و«الخل الوفي»، كيف لم يدرج السعادة معهم لتصير المستحيلات أربعة؟!
خدمة للحقيقة وليس من أجل تكبير عائلة المستحيلات.
فربمـا ظهر الغول ذات يوم.. وأطلت العنقاء ذات ليلة.. وبرز الخل الوفي في ساحة الحب..
ولكن ما هو مستحيل - حقا ـ ظهور السعادة في الدنيا وفي حياة الإنسان.. بل وعند جميع الكائنات الحية ذوات الأحاسيس..
□ □ □
يُنغّص الخوف من المرض حياة الإنسان.. فيبقى هذا الإنسان في خوف دائم من المرض.. والمرض شقاء وبلاء وألم ودموع وقلوب ترتعد..
وتأثير المرض لا يقع على المريض وحده.. وآثاره السلبية لا تعود بأذاها على المريض وحده.. بل إنها تأخذ في طريقها كل محبي هذا المريض من أم وأب وإخوة وأصدقاء ومعارف ومن ترتبط مصالحهم معه..
وهكذا فإننا نرى أن مرض شـخص واحد انعكس بآثاره السـلبية وأوجاعه على مجموعة من الناس! فأين السـعادة هنا؟ قد يقول قائل إن السعادة تتحقق في حالة إبلالة هذا المريض وشفائه من المرض الذي كان صريعه ولتشفي معه الجماعة ـ بعد ذلك ـ وتسعد!
فهل في انتظار الشـفاء أو تحققه سـعادة.. أم أنه شـقاء الانتظار والخوف المتربص..؟
في المنظور البسـيط والمتواضع قد تكون الإجابة: نعم إنّ في شفاء المريض سعادة له ولمحبّيه.. ولكن من يصدق تلك الإجابة ينسى أن المريض قد صحّ وتعافى ولكن المرض مازال موجودا يجوس في الأرض.. وغدا سـيكون له صريع آخر..إذن فإن السعادة لم تتحقق مادام عدوها وهو المرض موجودا يهددها ويهدد من يغتر بها ويلتحف بإزارها الكاذب..
□ □ □
هـل الخوف والقلق والألم والجوع والذل والجزع والفقر والمجهول والتسلط والاستبداد سعادة؟
أليست حياة الإنسان موزّعة بين تلك المصائب كلها؟
وأليس كل إنسـان منّا ضحية معدّة ومجهّزة لواحدة على الأقل من تلك المصائب.. إن لم تكن كلها أو بعضها؟ فهل من كان هذا شأنه وهذا واقعه وتلك هي محطات حياته يسـعد أو يصدق أن هناك شيئا اسمه السعادة؟
وكيـف يكون الخائف أو الضعيف أو المظلوم أو المتوجع أو الجائع أو من هو ضحية محتملة لواحدة من تلك المصائب.. سعيدا؟
هذا هو واقعنا نحن البشـر في هذه الدنيا.. فلماذا إذن نبتدع كلمة لا معنى لها ولا وجود.. ونسـميها السعادة ونجهد أنفسنا في البحث عنها والجري وراءها.. لنكون كمن يلهث وراء سـراب وهو مدرك تمام الإدراك أنه يجري خلف وهم لا وجود له؟
حتى الذين يقولون إن السعادة بالإيمان..هم واهمون وربما وهمهم يفوق الوهم الآخر.. لأن للإيمان تبعاته التي تنطوي على ما يؤكد عدم وجود السـعادة.. فهذا المؤمن الذي يَصدُق في إيمانه ويجهد نفسه في تطبيق ما يفرضه عليه إيمانه من عبادات وسلوك لبلوغ الإيمان الكامل الذي يضمن له دخول الجنة ويباعد بينه وبين النار.. هذا المؤمن أيضا لا يعيـش حياته سـعيدا.. بل هو في حالة قلق دائم.. يسـيطر عليه وسـواس وخوف من التقصير في طريق إرضاء الرب.. وهو ـ بسبب ذلك ـ دائم المحاسبة لنفسه خشية أن يكون قد أخل في وجه من أوجه العبادة أو أتى منكرا أغضب ربه وباعد بينه وبين الجنة التي يسـعى إليها في آخرته وجهد نفسه في الدنيا في سبيل بلوغها..
وحتى الغني في غناه وانبسـاط الدنيا تحت يديه.. يغرف منها ما يشاء.. وينهل من عذبها ما يشتهي..ويرشف من نميرها ما يلذ له.. هو والفقير سيّان في الشقاء والبعد عن سعادة الدنيا.. لأن غناه وفسحة الدنيا أمامه لن يبعدا عنه شبح المرض أو التفكير في فقدان هذه الثروة التي استعبدته ويجهد في سبيل حفظها متنكبا أهوالا ومرتقيا صعابا حتـى لا يزول ملكه وتتبدّد ثروته.. والظالم.. حاله من حال المظلوم.. فهو ليس سعيدا في ظلمه مثلما المظلوم شقي في مظلمته..
والحديث يطول ويطول..
□ □ □
فيا أيها الإنسـان.. عش حياتك كمـا هي.. ولا تصرف منها لحظة.. بحثا عن السعادة.. عن الكذبة التي ابتدعتها..فصدقتها..
يا أيها الإنسان لا تصدّق كذبتك..
صدق حقيقة الحياة.
□ □ □

السائق

توسّدت ماضيها.. وتوسّلت يومها..
خانها الأول.. وكسرها الثاني..
أغصان جرداء..
صُفرة..
ضجر..
صوت مخنوق..
عبارة باكية..
ذاكرة نهبتها ريح الزمن..
وجه وحيد يدور بين المرايا..
يُتم..
وحدة..
□ □ □
ملت الوردة مزهريتها الكريستال..
في داخلها حنين للتراب..
استأذنت سيدتها بأن تعيدها إليه..
نظرت إليها السيدة بتعال..
بتبرم قالت مسـتنكرة: تُعافين الكريستال وتحنين إلى التراب؟!
يالك من وردة سمجة وضيعة ناكرة للمعروف..
خرجت السيدة وصفقت الباب بحدة..
فتح لها السائق باب السيارة مع انحناءة تدل على الاحترام..
أين تأمرني سيدتي..؟
لا تجيب..
ظن أنها لم تسمعه..
أين تأمرني سيدتي..؟
أجابته بصوت زاعق: اخرس أيها الوقح..
سارت السـيارة تتهادى في اتجاهها غير المحدد.. والسائق يركز نظره إلى الأمام..
دق جـرس هاتفها النقال بأغنيتها المفضلـة.. ولكنها ـ ودون أن تدري من هو المتصل ـ شـتمت بأعلى صوتها وأغلقت الهاتف..دون أن ترد..
تجلس في المقعد الخلفي للسيارة.. صامتة.. سارحة.. تقلب نظرها في الأرجاء دون أن ترى شيئا..
تفتح حقيبة يدها ثم تغلقها.. ثم تفتحها وتغلقها..
لم تكن تبحث عن شـيء في الحقيبـة.. ولكنها تفعل ذلك لأن لا شيء آخر تفعله..
بكت..
فجأة بكت.. علا بكاؤها.. صار نواحا وعويلا..
تبكي بحرقة.. بألم.. تتشـنج والآهـات تخرج من صدرها حارة مؤثرة..
السائق مازال في صمته وخوفه وخرسه الذي فرضته عليه أول ركوبها السيارة..
احتار ماذا يفعل.. هل يكلمها.. يسـألها عن خدمة يسديها إليها..
يأخذهـا إلى الطبيب.. يعيدها إلى البيـت.. يتصل بأحد من أهلها.. أصدقائها..؟
مازال خائفا منها ومتعاطفا معها..يزداد ارتباكه ويتضاعف خوفه..
فلو تركها في هذه الحالة وجرى لها مكروه فسيتحمل هو المسؤولية..
ولن يصدقه أحد إذا ما قال إني سـكت بناء على طلبها وخشـيت أن تزداد سوءا لو كلمتها..!
بكاؤهـا في تصاعد إلى درجة أن ركاب السـيارات الأخرى بدأوا يلاحظون ويسمعون شيئا من بكائها..
نظر السائق في عداد الوقود فرآه في رمقه الأخير والإشارة الحمراء التي تدل على قرب نفاد الوقود مضاءة..
ازدادت حيرة السائق وزاد إشفاقه على سيدته.. رغم غلظتها معه وجفاء طبعها وحدتها..
فجأة نادته باسـمه وبرقة واضحة قالت له.. أوقف السيارة على جانب الطريق..
نزلـت واتجهت إليه وفتحت الباب الـذي بجانبه.. وقالت برفق انزل يا سيدي..
نزل وهو مرتبك حائر في أمر سيدته..
قالت له: تفضل اجلس في المقعد الخلفي.. حيثما كنت أجلس..
نفذ طلبها وجلس حيث أمرته..
مد يده من المقعد الخلفي.. يناولها حقيبتها..
قالت له لا.. إن الحقيبة حقيبتك يا سـيدي.. فمرني أين تريد أن تذهب؟
قال: أعتقد ان السيارة بحاجة إلى وقود..
تنهدت بحرقة وقالت ـ فعلا ـ هي بحاجة إلى وقود..